# الفلسفة و مشكلة العودة إلى اليونان
## هيراقليطس عائدا من جديد

**(ب) زروقي كمال: جامعة وهران2 محمد بن أحمد**
Kamelzerrouki78@gmail.com

**ملخص باللغة العربية:**

لا شك أنَّ الكثير من الشعوب عرفت الحكمة و التفكير قبل اليونان، لكن الحكمة التي ميزت اليونان كانت فريدة في نوعها لأنها قامت على العقل و المنطق بعيدا عن الأساطير و الخرافة هذا ما جعل البعض يعتبرها بمثابة المعجزة التي ليس لها مثيل، و بهذا ظلت خالدة في التاريخ و امتدت إلى يومنا هذا، فكانت فلسفتهم بمثابة المرجعية التي لابد من العودة إليها و منه كانت العودة إلى فلسفة هيراقليطس من أجل إنصافه و إعادة الاعتبار لفلسفته.

**ملخص باللغة الإنجليزية:**

There is no doubt that many peoples knew the wisdom and thinking before Greece, but the wisdom that characterized Greece was unique in its kind because it was based on reason and logic away from myths and legends, that's why some considered as unparalleled miracle, and thus remained everlasting in history and extended to the present day. Their philosophy was a reference that must be returned to. As the matter of fact it was the return to the philosophy of Heraclitus to be treated feuily and revalue his philosophy.

**كلمات مفتاحية:** الفلسفة، المعجزة اليونانية، الصيرورة، التغيّر، صراع الأضداد، اللوغوس

**مقدمة:**

لقد عرفت الكثير من الشعوب الحكمة و الفكر قبل اليونان، لكن الحكمة التي تميز بها اليونان كانت فريدة في نوعها، فقد آمن اليونان بالعقل و الفكر الخالص بعيدا عن التفسيرات الأسطورية و الخرافية و التقاليد الدينية التي لطالما قيدت العقل، فالإنسانية تدين بالكثير من الفضل لليونان، و هذا ما جعل إرنست رينان يعتبرها بمثابة المعجزة،فكان لهم "الفضل الأول في تأسيس الفلسفة و العلوم الرياضية و الطبيعية فضلا عما أبدعوه من روائع الفن و الأدب و المؤلفات التاريخية التي مازالت حتى اليوم تسترعي إعجاب العالم أجمع".[1]

فإلى اليونان ترجع أكبر معالم التفكير و التراث العقلي للإنسانية، مما يجعل جلّ الابداعات الأدبية و الفلسفية و الفكرية تعود إلى اليونان، فهم بذلك "أساتذة العالم القديم و الأوسط و

[1]- جميل صليبا، كامل عياد: المنطق و طرائق العلم العامة، مكتبة العلوم و الآداب، دمشق، (دط)، 1984، ص55

الحديث، كيف لا و هم رواد النزعة العقلية في العالم و طلائعها، و هم جنود الفكر الخالص الذين آمنوا بالعقل كأول من آمن وتعلقوا بالمعرفة لذات المعرفة".[1]

إن الخصائص التي ميزت اليونان سهلت عليهم التحرر من كل ما هو خرافي و تأسيس نمط متميز من التفكير أساسه العقل،مما مكن فلاسفة اليونان من طرح أسئلتهم و أفكارهم العلمية و الإجابة عنها في جو من الحرية و دون قيد، فشكلت أبحاثهم قطيعة مع الفكر الأسطوري الذي سيطر على التفكير عند اليونان و في هذا يقول راسل:"تبدأ الفلسفة حين يطرح المرء سؤالا عاما، و على النحو ذاته يبدأ العلم، و لقد كان أول شعب أبدى هذا النوع من حب الاستطلاع هو اليونانيون فالفلسفة و العلم كما نعرفهما اختراعان يونانيان، و الواقع أن ظهور الحضارة اليونانية التي أنتجت هذا النشاط العقلي العارم، إنما هو واحد من أروع أحداث التاريخ و هو حدث لم يظهر له نظير قبله و لا بعده. ففي فترة قصيرة لا تزيد عن قرنين، فاضت العبقرية اليونانية في ميادين الفن و الأدب و الفلسفة بسيل لا ينقطع من الروائع التي أصبحت مند ذلك الحين مقياسا عاما للحضارة الغربية".[2]

لكن الحديث عن اليونان لا يجعلنا ننفي أن الأمم الشرقية لم تعرف أيّ تفكير فلسفي فلقد تميزت شعوب كثيرة بعناصر هامة من التفكير الفلسفي كما هو الحال بالنسبة للمصريين و الهنود و الإيرانيين و الصينيين لكن ما حجب هذه الحكمة من الظهور سيطرة الطابع الديني عليها، كما أن القول بالمعجزة اليونانية لا يعني أن اليونان ظهروا فجأة و هم يحملون لواء العقل و الفلسفة بل هم أيضا عايشوا الخرافات و الأساطير التي وقع فيها غيرهم، فالمعجزة اليونانية قد سبقتها جهود كثيرة في مصر و بلاد ما بين النهرين و عند الهنود و غيرهم و كان لاختلاط اليونان بهذه الأمم الشرقية الفضل في تحفيز عقول اليونان للبحث في أصل الوجود و علل الأشياء.

والمتتبع لتاريخ الفلسفة و تطورها عبر العصور، سيلاحظ ذلك الارتباط الوثيق و الدائم باليونان من خلال العودة إلى فكرهم و فلسفتهم، باعتبارها الأصل الذي لابد من العودة إليه، هذه العودة المستمرة التي نلمس أثرها في الفلسفة الاسلامية و الفلسفة الحديثة و المعاصرة، فقد اهتم الكثير من الفلاسفة بالفلسفة اليونانية مثل هيغل وكارل ماركس و نيتشه و هيدجر و دولوز و ميشال فوكو و جاكدريدا وغيرهم من الكتاب و الشعراء و الباحثين، و من الفلاسفة اليونان الذين كانت العودة إلى فلسفتهم و فكرهم نجد فيلسوف التغيّر هيراقليطس.فكيف يمكن قراءة الإرث اليوناني في تاريخ الفلسفة؟ و ما هي تجليات حضور هيراقليطس في الفلسفة الحديثة و المعاصرة؟

[1]- عبد الرحمن مرحبا: مع الفلسفة اليونانية، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط3، 1988، ص58
[2]-برتراند راسل: حكمة الغرب. ج1، تر: فؤاد زكريا، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، العدد 62، 1983، ص21

## الفلسفة اليونانية بين الأصول الشرقية و المعجزة:

### الأصول الشرقية:

غالباما يرجع المؤرخون البدايات الأولى للفلسفة إلى طاليس باعتباره أول فيلسوف، لكن الكثير من الباحثين ينظر إلى أن الفلسفة تعود إلى ما قبل طاليس بكثير، و ذلك لأنها ارتبطت بالحضارات الشرقية القديمة، ومن أجل "الإجابة عن السؤال: أين نشأت؟ عند اليونان أو بلاد المشرق القديم؟ فقد انقسم الباحثون حيالها فريقين: الأول يؤيد النشأة في بلاد اليونان و يرى أن الشرقي لم يكن سوى فكر لاهوتي من ألفه إلى يـائه، أما الفريق الأخر فقد رأى أن هناك فلسفة شرقية خاصة ترتبط بالدين أحيانا و تنفصل عنه أحيانا أخرى".[1]

لقد ظل الرأي الأول القائل بأن الفلسفة اليونانية إبداع يوناني خالص سائدا مدة قرون من الزمن، لكن هذا الرأي لم يصمد أمام الاكتشافات العديدة التي أثبتت أن الحضارات الشرقية عرفت التفكير و الازدهار، هذا ما جعل "مؤرخي الفلسفة يميلون إلى القول بأن نشأة الفلسفة في بلاد اليونان في القرن السادس ق.م ليس بحقيقة نهائية حاسمة، بقدر ما هو افتراض عملي و نقطة بدء مؤقتة في البحث نسلم بها لأن الوثائق الخاصة بعلوم الحضارات الشرقية القديمة و فلسفتها ليست وافية، و لا هي واضحة بالقدر الذي يسمح بأن نقرر بشكل حاسم أن بلاد اليونان هي مهد الفلسفة و مبدأ تاريخها و أنها أرض المعجزة".[2]

إن الحديث عن الفلسفة اليونانية لا ينفي أن الحضارات القديمة خاصة عند المصريين و بلاد ما بين النهرين عرفت التفكير على شاكلة اليونان، هذا ما جعل إميل برهيه يقول: "إذا كنا نبدأ تاريخنا بطاليس فليس معنى ذلك أن نتجاهل التاريخ القديم الذي ثم فيه تكوين الفكر الفلسفي، و إنما لسبب عملي صرف هو أن الوثائق المكتوبة عن حضارات ما بين النهرين ليست كافية و ينقصها الوضوح، كما أن الوثائق المتعلقة بالمجتمعات البدائية لا تكفي بدورها في إرشادنا عن اليونان في طورها البدائي".[3]

وعلى هذا فإن الفلسفة اليونانية لم تكن منعزلة عن حضارات الشرق و هو ما تؤكده شواهد كثيرة، فكلالإشارات تبين أن حضارة اليونان بفعل تطور التجارة و عوامل أخرى، كانت متفاعلة مع الحضارات الشرقية التي كانت سابقة في بلورة المعارف و العلوم، فقد "ظهرت مند عدة آلاف من السنين حضارات مزدهرة في أودية الأنهار الكبرى كالنيل و

[1]-جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسين، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، العدد199، 1995، ص07

[2]-أميرة حلمي مطر: الفلسفة اليونانية تاريخها و مشكلاتها، دار قباء، القاهرة، طبعة جديدة، 1998، ص21

[3]-emilebréhier : histoire de le philosophie, tome premier, l'antiquité et le moyen age, intrduction, 2005, p06

الفرات، و إلى الشرق منها في أنهار الهند و الصين، و تدل الآثار التي خلفتها هذه الحضارات المجيدة على أنها كانت حضارات ناضجة كل النضج بالقياس إلى عصرها".[1]

و لقد قدمت لنا الفلسفة اليونانية أعظم الفلاسفة على الإطلاق فهم الذين وضعوا بذرة الفلسفة، لكنهم أيضا لم يأتوا من العدم، بل ثمة إرهاصات كانت بمثابة النور الذي حوله فلاسفة اليونان إلى شعلة أضاءت شمس الحضارة الإنسانية فالكثير من "الشعوب التي عاشت في الشرق القديم كانت بارعة في الاستخدام العلمي للمعارف الموروثة".[2]

هذا ما يبين أن الفلسفة كانت ناتجة عن إسهامات العديد من الشعوب، و لم يتفرد في ذلك شعب معين على وجه الخصوص و ما نسميه اليوم بالفلسفة اليونانية ما هو في الحقيقة إلا تنمية وتطوير لما يسمى بالحكمة الشرقية، فلقد "أدرك الباحثون أن الكلام عن "معجزة" يونانية ليس من العلم في شيء، فالقول أن اليونانيين أبدعوا فجأة و دون سوابق أو مؤثرات خارجية حضارة عبقرية في مختلف الميادين ومنها العلم، هو قول يتنافى مع المبادئ العلمية التي تؤكد اتصال الحضارات و تأثيرها بعضها ببعض".[3]

إن البذور الأولى للمعرفة قد أخدها اليونانيين القدماء من هذه الشعوب الشرقية و هذا ما يؤكده الكثير من فلاسفتهم "فقد شهد فيلسوفهم الأكبر "أفلاطون" الذي كان في الوقت ذاته عالما رياضيا بفضل الحضارة الفرعونية على العلم و الفكر اليوناني، و أكد أن اليونانيين إنما هم "أطفال" بالقياس إلى تلك الحضارة القديمة العظيمة".[4]

**الفلسفة اليونانية "المعجزة":**

من جهة أخرى اعترض الكثير على الفكرة القائلة بالاتصال بين الفلسفة اليونانية و الشرق القديم معتبرين أن الفلسفة اليونانية هي بمثابة معجزة يونانية أي أنها إبداع خالص لليونانيين، هذا ما جعل مؤيدي فكرة المعجزة يعتبرون أن "التفلسف الإنساني إنما نشأ في أرض اليونان، و يعود إلى اليونانيين جملة و تفصيلا، و لهذا فهم يقرون أن أية مناقشة علمية للظواهر الاجتماعية المختلفة لم تعرف إلا مع اليونانيين، و أن هؤلاء هم الذين خلقوا مبدأ الرقي الإنساني و أن الحضارة الإنسانية المعاصرة أو الحضارة الغربية ما هي إلا امتداد لعبقرية اليونانيين في العلم و الفلسفة".[5]

كما أن "الطابع الفكري الذي توصل إليه اليونان و اختصوا به دونا عن باقي الأمم الشرقية الأخرى، فهو اكتشافهم لمفهوم العلم بمعناه الحديث أي إدراكهم أن العلم أنما يتلخص

[1]- فؤاد زكريا: التفكير العلمي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، العدد 3، 1978، ص94
[2]-المرجع نفسه: ص95
[3]-المرجع نفسه: ص99
[4]-فؤاد زكريا: التفكير العلمي، مرجع سابق، ص99
[5]-مهدي فضل الله: بدايات التفلسف الإنساني. الفلسفة ظهرت في الشرق، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص37

في وضع القوانين و النظريات المفسرة لمجموعة من الظواهر الجزئية، فكان بحثهم دائما لا يقف عند حد وصف الظاهرة الجزئية بل بربطها بغيرها للوصول إلى العلة المفسرة لها أو القانون الكلي".[1]

لذلك يرى جون برنت أنه لا يمكن أن نتحدث عن فلسفة بالمعنى الحقيقي لدى المصريين أو البابليين، وحتى و إن وجد تفكير فلسفي فالهنود أحق بذلك يقول: "أما الذين يمكن أن ننسب لهم فلسفة من القدماء هم الهنود. و لكننا على الرغم من ذلك لا يمكن أن نرجع الفلسفة اليونانية إلى الهنود، بل الأقرب إلى الحقيقة أن الفلسفة الهندية هي التي تأثرت بالفلسفة اليونانية".[2]

و بهذا فظهور هذه المعجزة اليونانية يعود "لأسباب اجتماعية و عوامل فكرية أخرى توفرت عند اليونان و لا نجد لها نظيرا عند قدماء الشرقيين و أهم هذه الأسباب الاجتماعية هو تمتع الإغريق بحرية لا مثيل لها سببها عدم تقيدهم بسلطان العقائد الدينية المتوارثة في الشرق القديم"[3]،فهذه الخصائص سواء السياسية و الدينية و الجغرافية كلها سهلت عليهم التحرر من كل ما هو خرافي وأسطوري، و تأسيس نمط متميز من التفكير.

و تجدر الإشارة إلى أن "الذين ينكرون تأثر المدنية اليونانية بغيرها، تقاة من الباحثين أمثال العلامة "ريترritter" الألماني في كتابه "تاريخ الفلسفة القديمة" و الفيلسوف "رينان renan" الفرنسي في كتابه "تاريخ الأديان" و العلامة "زلرzeller" في كتابه "تاريخ الفلسفة اليونانية"، و هم يجمعون كما يتبعهم غيرهم من الكتاب على القول باستقلال الثقافة اليونانية عن غيرها من ضروب الثقافات الإنسانية".[4]

لذلك يقال في هذا الشأن "إن الحضارة اليونانية -أُم الحضارة الغربية- ليست مدينة بشيء إلا لنفسها، فردد هذا القول كُتاب اتفقوا في الفكرة، و إن اختلفوا في طريقة التعبير عنها، و رموا جميعا إلى إثبات أنه في تلك البقعة الفريدة الممتازة، استقى شعب مختار من شعوب البشر كل غرائب الفن، ومدهشات العالم، و روائع الأدب و الفلسفة، مستمدا أصولها من ذات نفسه ومن أعماق وجدانه".[5]

إنَّ الشيء الأكيد هو أنَّ الفلسفة اليونانية أثرت بشكل كبير في الفلسفات اللاحقة سواء لمسنا حضورها في الفلسفة الوسيطية أو في الفلسفة الإسلامية و كذا الفلسفة الحديثة و المعاصرة، هذا ما يجعل منها القاعدة لكل تفكير فلسفي، و من بين الفلاسفة الذين كانت

[1]-أميرة حلمي مطر: الفلسفة اليونانية. تاريخها و مشكلاتها، مرجع سابق، ص23
[2]-john burnet: early greek philosophy, second edition, london 1908, p218
[3]-أميرة حلمي مطر: الفلسفة اليونانية تاريخها و مشكلاتها، مرجع سابق، ص23
[4]-إسماعيل مظهر: فلسفة اللذة و الألم، كلمات عربية، القاهرة، ص17
[5]-المرجع نفسه: ص19

العودة إلى فلسفتهم هيراقليطس. هذه العودة التي تحاول ردّالاعتبار لهذا الفيلسوف و المفكر الكبير الذي يوصف بالمظلم و الغامض و التشويه الذي طال فكره و فلسفته.

**هيراقليطس فيلسوف الصيرورة*:**

يعدُّهيراقليطس (535ق.م، 475ق.م) واحدا من أهم الفلاسفة في اليونان ولد في أفسوس بآسيا الصغرى كما يعرف أنه من عائلة نبيلة أرستقراطية، و لعلَّ هذه المكانة التي احتلها في مجتمعه خلقت فيه شعورا "بالعظمة و الكبرياء، و قد بالغ في ذلك إلى حدّ العلو و الإسراف كأنّما هو من طينة غير البشر".[1]

كما أنَّ هيراقليطس قد انتقد من سبقوه من الفلاسفة أمثال أكسانوفان و فيتاغورس، و ذهب إلى أنَّ هوميروس يجب أن يكون مصيره الجلد بالسياط و نفس الشيء بالنسبة لهزيود لأنهم ظلّلوا الناس بأساطيرهم و خرافاتهم، إضافة إلى ذلك هاجم ديموقراطية أفسوس بشدّة و قد عرف عن هيراقليطس أنه لقب بالغامض تارة و بالمظلم تارة أخرى نظرا لغموض أسلوبه في الكتابة*، هذا ما جعل بعض المؤرخين يعتبرون أسلوبه الغامض في الكتابة كان مقصودا حتى لا يفهمه إلا أصحاب العقول النيّرة و المتميّزة، هذا ما جعل سقراط يؤكد أنَّ ما فهمه من كتابات هيراقليطس شيء عظيم و ما لم يفهمه عظيم هو الآخر.[2]

أما عن أسباب غموض أسلوبه فقد قيل فيه الكثير بحيث أرجعه تاوفراسطس إلى أنَّ كتاباته جاءت غامضة لاختلال عقل صاحبها، و أرجعها أرسطو إلى الأخطاء التي وردت أثناء الترقيم، أما برنت فيقول أن زمن الحروب التي عاش فيه هيراقليطس افترض أو تطلّب هذا النوع من الكتابة، أما زللر فأكد أنَّ أسلوبه يرجع إلى عمق تفكيره و هو يرى أنَّ أسلوبه هذا دليل على صدق أفكاره و مكانتها و قد ذهبت كاتلين فريمان إلى أنَّ هيراقليطس لجأ إلى هذا الأسلوب حتى تكون كتاباته بمنأى عن فهم العامة من الناس و حتى لا يقرأها إلا أصحاب الفكر المتميّز.[3]

و كغيره من فلاسفة اليونان الأوائل طرح هيراقليطس عدة أسئلة:

ما أصل الأشياء جميعا؟ هل الوجود ثابت أم متغير؟ هل العالم تحكمه الوحدة أم الكثرة؟

---

*الصيرورة انتقال الشيء من حالة إلى أخرى، أو من زمان إلى زمان و هي مرادفة للحركة و التغيّر من جهة كونهما انتقالا من حالة إلى أخرى، و الشيء المتصف بالصيرورة نقيض الشيء المتصف بالثبوت و السكون، و الصيرورة عند هيراقليطس صراع بين الأضداد.راجع: جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ص748

[1]-أحمد أمين، زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1935، ص53

*دون هيراقليطس كتابا واحدا بقيت منه مائة و ثلاثون شذرة، و يصفه ديوجينلايرتوس بأنَّ عنوانه في الطبيعة. راجع: أميرة حلمي مطر: الفلسفة اليونانية. تاريخها و مشكلاتها، مرجع سابق، ص57

[2]-أحمد أمين، زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية، مرجع سابق، ص54

[3]-أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة ليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1954، ص101، 102

لقد كان هيراقليطس من الفلاسفة الأوائل الذين أثاروا قضية التغيّر و الحركة الدائمة في العالم، و أكد أنَّ الجوهر الأساسي للأشياء هي النار، و انطلاقا من فكرة التغيّر حاول هيراقليطس أن يوجه انتقاداته لكل الأفكار التي تقرُّ بالثبات، فالوجود عند هيراقليطس "دائم السيلان على حدّ تعبيره، فالشيء الواحد لا يستمر على حاله و الأشياء كلها تتحول باستمرار، و ليس فقط الشيء الواحد يتحول إلى شيء آخر، بل أيضا هذا الشيء الواحد لا يستقر لحظة واحدة و إنما هو ينقلب دائما و باستمرار من حال إلى حال".[1]

و بهذا فإنَّ هيراقليطس يؤكد على تغيّر الوجود و أنَّ التغيّر يرتبط بمفهوم التضاد، فالجوهر الأساسي الذي يقوم عليه الوجود هو الحركة و التغيّر الدائم، و هذا التغيّر و الحركة و الجريان صراع بين الأضداد، فالأشياء كلها تنتقل من ضدّ إلى آخر فالخير و الشر و الليل و النهار و الحرارة و البرودة حتى في انتقال الإنسان من مرحلة لأخرى و بين الحياة و الموت فلولا "التغيّر لم يكن شيء. فإنَّ الاستقرار موت و عدم و التغيّر صراع بين الأضداد ليحل بعضها محلّ بعض "و الشقاق أبو الأشياء و ملكها"، لولا المرض لما اشتهينا الصحة و لولا العمل لما نعمنا بالراحة و لولا الخطر لما كانت الشجاعة و لولا الشر لما كان الخير...و نحن ننزل النهر و لا ننزل (من حيث أنَّ مياهه تتجدد بلا انقطاع)، و نحن موجودون و غير موجودين (من حيث أنَّ الفناء يدب فينا في كل لحظة)، فكل شيء هو كذا و ليس كذا موجود و غير موجود".[2]

و هذا يعني أنَّ الوجود دائما متغيّر و باستمرار و هو لا يعرف الثبات و الاستقرار، فلا شيء يبقى كما هو فالثبات يحيل إلى الموت،و التغيّر هو جوهر و أساس الحياة و لعلّ ما يؤكد ذلك ما جاء في شذراته:

"فالنار تحيا بموت الأرض، و الهواء يحيا بموت النار و النار تحيا بموت الهواء و الأرض تحيا بموت الماء"(76-26)، "و الأشياء الباردة تصير حارة، و الحارة تصير باردة، و يجف الرطب و يصبح الجاف رطبا"(126-39)، و على ذلك "لا يمكنك أن تنزل مرتين في النهر نفسه لأنَّ مياهًا جديدة تغمرك باستمرار"(91-41)، "يجهل الناس كيف يكون الشيء مختلفا و متفقا مع نفسه، فالائتلاف harmonia يقوم على الشدّ و الجذب بين الأضداد كالحال في القوس و القيثارة"(51-45)، و "الضدّ هو الخير لنا"(46-).[3]

يمكن أن نلتمس من خلال هذه الشذرات أنَّ "الأشياء المتقابلة أو المتضادة هي التي ينشأ عنها الوجود، و هكذا يلاحظ أنَّ مصدر الوجود هو مبدأ النزاع، إلا أنه يوجد إلى جانب مبدأ

[1]-عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط3، (دت)، ص138
[2]-يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية،مطبعة لجنة التأليف و الترجمة، 1936، ص20
[3]-هيراقليطس، شذرات هيراقليطس الواردة هنا من في الكلperi tu pantosالترجمة العربية: أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة ليونانية قبل سقراط، مرجع سابق، ص105، 107
ترجمها نقلا عن الترجمة الانجليزية برنتburnet، فريمانfreeman

النزاع هذا مبدأ الانسجام، فإنَّ الأشياء لا تستمر في هذا النزاع بل تعود إلى شيء من الوحدة...إذا، يهيمن على جميع الأشياء مبدأ واحدا يجعلها تتغيّر باستمرار، و تبعا لهذا المبدأ أو القانون تتحول الأشياء بعضها إلى بعض عن طريق هذا السيلان الدائم، و هذا المبدأ يسميه هيراقليطس باسم القانون أو باسم النسب المستمرة الثابتة أو باسم اللوغوس".[1]

و بهذا تتجلى لنا فلسفة هيراقليطس في اعتماده على العقل و في نظره أنَّ الفيلسوف يجب أن يعمل عقله للوصول إلى اللوغوس، هذا المفهوم الذي يعتبر من المفاهيم الهامة التي قامت عليها فلسفته فهذا "اللوغوس* هو القانون العام الذي يسير عليه الوجود في تغيّره من ضدّ إلى ضد و هو الشيء الوحيد الثابت في هذا الوجود الدائم السيلان، و هو الله، و هو النار"[2]، و هكذا فإنَّ "اللوغوس عند هيراقليطس هو مبدأ كوني تكمن فيه علّة النظام و التناسب و الاتزان و الانسجام و العقلية في دفق الوجود المتواصل، و هو في الوقت نفسه حيّ و زاخر بالحياة، و وحدة الحياة و العقلية في المفهوم المفرد عن اللوغوس هي واحدة من أكبر مساهمات هيراقليطس في تراثنا الفكري التقليدي".[3]

من خلال هذا يمكن القول أنَّ هيراقليطس قد اهتم بدراسة مبحث التناقض فاعتبره القانون العام و الأول الذي يحرك الوجود، فأصل العالم في نظره مركب من الأضداد فكل شيء هو موجود و غير موجود "و لعلّ الفيلسوف اليوناني هيراقليطس صاحب مذهب التغيّر و الصيرورة و الذي ذهب إلى أنَّ الشيء يحوي ضدّه في نفس الوقت و أنَّ التناقض هو سمة الحياة و الوجود، و أنَّ الإنسان لا يستطيع أن ينزل إلى البحر مرتين، هو الذي اضطر بارمنيدس إلى أن ينادي بالثبات و الذاتية، اضطر أرسطو أن يضع للفكر قوانينا عامة يسير بمقتضاها و جعلها قوانينا أولية سابقة على كل تفكير"[4]، لذلك يمكن أن نعتبر هذه القوانين على أنها أساس المنطق "فالعقل الإنساني لا يستطيع أن يتقدم خطوة في البرهنة و الاستدلال دون أن يستند إليها، فالقياس الأرسطي سيقوم عليها كما سيقوم عليها الاستدلال و المنطق برمته حتى في صورته الحديثة المتطورة".[5]

## تجليات حضور هيراقليطس:

[1]-عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني، مرجع سابق، ص140

*اللوغوس: الكلمة أو القول و يطلقه هيراقليطس على مبدأ أو قانون السيلان الدائم الذي تجري على أساسه أنواع التغيّر المتضاد في الوجود، ووردت كلمة اللوغوس في افتتاحية الإنجيل الرابع (إنجيل يوحنا) "في البدء كان الكلمة، و الكلمة كان عند الله، و كان الكلمة الله"، و قامت بحوث عديدة ترجع فكرة اللوغوس في الإنجيل إلى تأثير فيلون اليهودي، و اللوغوس في الفلسفة الرواقية تعني العقل البذري أو المبدأ الخالق للأشياء و القوة الباطنة في الموجودات. راجع: عبد المنعم الحفني: المعجم الفلسفي الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 2000، ص713

[2]-عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني، مرجع سابق، ص140

[3]-أ.ه.أرمسترونغ: مدخل إلى الفلسفة القديمة، تر: سعيد الغانمي، كلمة و المركز الثقافي العربي، أبو ظبي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 2009، ص31

[4]-علي عبد المعطي محمد: المنطق و مناهج البحث العلمي في العلوم الرياضية و الطبيعية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط2، 2004، ص28

[5]-المرجع نفسه: ص41

لقد لاحظ الدكتور محمد الشيخ "أنَّ هناك تقليدين في دراسة الفلسفة اليونانية انتشرا في ألمانيا: الأول تقليد نابع من الإعجاب باليونان من منطلق الشعور بعظمة هذا الإنجاز و جمال الآثار التي خلفوها سواء المادية أو الفكرية المعنوية، و هذا ما يجعل الحضارة اليونانية في الريادة على جميع الأصعدة الإنسانية، و تقليد ثان فيه ثم الاهتمام باليونان لكن ليس من منظور سلبي انبهاري تقبلي بل من منطلق أنَّ هذه الحضارة العريقة لم تكتشف بعد على حقيقتها لذا يجب العمل على دراستها".[1]

و بالعودة إلى هيراقليطس نجد أنه كان محلّ اهتمام و تقدير في العصور اللاحقة و يتجلى ذلك في الاهتمام الذي حظي به خاصة في العصر الحديث "لأنه أول من أكد حقيقة الصراع و التغيّر في الوجود و أول من عارض منطق الثبات الصوري بمنطق حركي ديالكتيكي مطابق لحركة الواقع. فالمنطق الصوري يؤكد عدم التناقض و يرى أنَّ الشيء أما س أو لا س و لكن الواقع في منطق هيراقليطس يحتمل الضدين معا فهو س و لا س في وقت واحد".[2]

كذلك اهتم كارل ماركس بالفلسفة اليونانية من خلال مؤلفه "الفرق بين ديموقريطس و أبيقور في فلسفة الطبيعة"، و هو نفس ما اهتم به أستاذ التاريخ و الفيلولوجيا فريدريك كرويتسر في عدة مؤلفات عن الفلسفة اليونانية مثل "في الفن التاريخي عند اليونان"، "شذرات أقدم المؤرخين اليونانيين"، "رموز و أساطير الشعوب القديمة و خصوصا اليونان"[3]، كما أنَّ فلسفة هيغل و نسقه المنطقي لا يمكن أن يتأسس من دون الاعتماد على مبادئ فلسفة هيراقليطس (اللوغوس، الجدل، الصيرورة، وحدة الأضداد).

كما أنَّنيتشه اهتم بإعادة بعث فلسفة هيراقليطس في كتابه "الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي" الذي تحدث فيه عن التهميش الذي طال فلسفة هيراقليطس بقوله: "من المؤسف حقا ألا يبقى لدينا من نتاج معلمي الفلاسفة الأوائل إلا القليل، و أن يكون كل إنتاجهم قد أفلت من أيدينا و بسبب هذه الخسارة فإننا نحكم عليهم لا إراديا انطلاقا من مقاييس خاطئة...و لكنه مصير سيئ النية على أي حال إذا كان يحرمنا من هيراقليطس...يبدو أننا فقدنا من الفلسفة اليونانية قسمها الأكثر عظمة"[4]، و عن فكرة الصيرورة يعتقد نيتشه أنَّ هيراقليطس قد استقاها من الواقع الإغريقي ذاته كما يرتبط بالمدينة اليونانية، ففكرة الصراع نابعة من ملاعب الرياضة البدنية التي يسود فيها الصراع و المنافسة و المبارزة و كل أشكال الحركة،

[1]-عبد الكريم عنيات: قراءة نيتشه للفلسفة اليونانية، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2010، ص6
[2]-أميرة حلمي مطر: الفلسفة اليونانية. تاريخها و مشكلاتها، مرجع سابق، ص67
[3]-عبد الكريم عنيات: قراءة نيتشه للفلسفة اليونانية، مرجع سابق، ص5
[4]-فريدريك نيتشه: الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، تعريب: سهيل القش، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص44

كما يرتبط بالصراعات بين الأحزاب السياسية و المناظرات السياسية التي لعبت دورا كبيرا في ظهور فكرة الصراع.[1]

إنَّ نيتشه "لا يتوانى في تقدير فلسفة هيراقليطس من بين كل الفلسفات سواء في الأزمنة القديمة أو الحديثة و حتى المعاصرة، ذلك أنَّ فلسفة الصيرورة تعتبر من أكثر الفلسفات شمولية، لأن هذا المفهوم أو هذه الكلمة تحمل لنا في داخلها نظرة فلسفية لطبيعة الوجود و حقيقة نظامه، من هنا يمكن أن نستحضر عبارته الشهيرة (لا يمكن أن نسبح في النهر مرتين) إنَّ العالم الذي نعيش فيه هو عالم الصيرورة و التحول و التغيّر، هذه الفكرة نجد لها امتدادها عند هنري برغسون في كلامه عن الديمومة".[2]

كذلك نجد هيدغر من بين الفلاسفة المعاصرين الذين طالبوا بالعودة إلى التراث اليوناني و التواصل معه، و قد اهتم هيدغر بالعودة إلى أنكسماندرس و بارمنيدس و أفلاطون و أرسطو و لكن مرجعيته الأساسية كانت هيراقليطس، و هكذا فإنَّ العودة إلى الفلسفة ما قبل السقراطية بالنسبة لهيدغر و تأويل أفكارهم تتيح إمكانية الانخراط في الحاضر و متابعة تحولات الراهن[3]، كما يرى هيدغر أنَّ هيراقليطس يوصف "بالمظلم غير أنه هو المنير. ذلك أنه ينطق عن المنير عندما يحاول الإهابة بظهوره (و تجليه) في لغة الفكر، إنَّ المنير ليبقى بقدر ما ينير و نحن نسمي نوره الإنارة و علينا أن نتفكر فيما يتصل بها و ينتمي إليها...إنَّ كلمة "المنير" تدل على ما يضيء و يشع و يسطع".[4]

و من وجهة نظر جيل دولوز فإنَّ هيراقليطس "هو ذلك الذي يرى الحياة بريئة و عادلة بصورة جدرية، إنه يفهم الوجود انطلاقا من غريزة لعب و يجعل من الوجود ظاهرة جمالية لا ظاهرة أخلاقية و دينية"[5]، و يضيف كذلك قائلا "لقد نظر هيراقليطس بعمق، فلم يرى أيَّ عقاب للمتعدد أيَّ تكفير عن الصيرورة، أيَّ ذنب للوجود لم يجد أيَّ شيء سلبي في الصيرورة"[6]، فقد "يحدث أن لا شيء يتغير في التاريخ كما قد يبدو ذلك، لكن كل شيء يتغيّر في الحدث و نتغيّر نحن في الحدث".[7]

**الخاتمة:**

[1]-االمرجع نفسه: ص57
[2]-لحسن لحمادي: هيراقليطس (الحكيم الأفزي) بعيون نيتشه، 2015/06/25، الحوار المتمدن، www.m.ahewar.org
[3]-صاري رشيدة: اللوجوس من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة المعاصرة. هيراقليطس، هيدغر أنموذجين، رسالة دكتوراه، جامعة وهران2، 2015، ص 263، 264
[4]-مارتن هيدجر: نداء الحقيقة، تر: عبد القادر مكاوي، دار الثقافة للطباعة و النشر، القاهرة، 1977، ص364
[5]-جيل دولوز: نيتشه و الفلسفة، تر: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص33
[6]-المرجع نفسه: ص34
[7]-جيل دولوز، فليكس غتّاري: ما هي الفلسفة، تر: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997، ص123

تبقى الفلسفة اليونانية منبعا لكل تفكير فلسفي نرتحل إليه للكشف عن الأسس التي شيّدت لواحدة من أعظم الحضارات في تاريخ البشرية، هي عودة تسمح لنا بإعادة قراءة الإرث اليوناني ليس باعتباره إرثا قديما و إنما باعتباره متجددا من خلال امتداده في الفلسفات اللاحقة، فكانت العودة إلى أفكار الطبيعيين الأوائل و فلسفة فيتاغورس و سقراط و أفلاطون و أرسطو و غيرهم، كما هي العودة إلى فلسفة هيراقليطس من خلال تشريح مفاهيمه، فيلسوف الأضداد و الحركة و النار الذي "بلغ شأوا هائلا في تكسير ما هو سائد، و هو تكسير ليس مؤقتا ضمن عصر غابر منقرض بل ضمن تاريخ البشرية الممتد".[1]

[1]-فهد سليمان الشقيران: هيراقليطس..فيلسوف الصيرور و النار، جريدة الشرق الأوسط، 2014/3/1، https://aawsat.com